



جامعة الملك سعود
كلية التربية
قسم الدراسات القرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

التربية باتباع الرسول ﷺ
وتطبيقاتها في القرآن الكريم

بحث مقدم إلى

ملتقى التربية بالقرآن الكريم ــ مناهج وتجارب

25-26/1426هـــ الموافق 17- 18/ 12 / 2014 م.

إعداد

د. وفاء بنت عبد الله الزعاقي

أستاذة التفسير المساعد

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد

لما كان شرف الشيء يعرف بما ينسب إليه، كان شرف التربية بالقرآن الكريم تُعرف أهميتها وضرورتها وعظم قدرها بنسبتها لكلام الله تعالى، واستمدادها منه. ولذا فإن التربية بالقرآن الكريم صورة من صور عظمته وعلوه وهيمنته على سائر المناهج التربوية قديماً وحديثاً. يتجلى ذلك واقعاً حياً تطبيقياً في حياة صحابة رسول اللهﷺخير قرن أخرج للناس؛ والقرون التي تلتهم وتعلمت منهم، ونهلت من معينهم، وتأثرت بهم تأثراً مباشراً.

إن علم التربية بالقرآن الكريم علم يستمد مقاصده وأسسه ومناهجه وأهدافه ووسائله وغاياته من القرآن الكريم، يبدأ منه وإليه يعود، دون الحاجة إلى الرجوع إلى مناهج البشر الفكرية، أو القراءة في نظرياتهم الفلسفية، أو المقارنة بين مخرجاتهم التربوية.

ومما يدل على تفرد القرآن الكريم في تربيته؛ اعتماده اتباع الرسولﷺأساسا من أسس التربية والإصلاح وتنمية النفس البشرية، وهو أساس يختلف عن التربية بالقدوة الصالحة من البشر، اختلافاً بيِّنا كاختلاف الرسولﷺ عن سائر الناس. فاتباع الرسولﷺ ركن من أركان الإيمان، وأساس من أسس الشهادة بنبوتهﷺ.

لقد أنزل اللهﻷ القرآن الكريم لهداية الناس، وجعل مع القرآن الكريم سنة نبيهﷺفعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ."[1]. وكان من عظيم رحمته ولطفه سبحانه وتعالى أن جعل من مهمة الرسولﷺ التعليم والتربية وإصلاح النفوس، إذ يتعذر في كثير من الأحياء تطبيق حكم من أحكام الله دون أن يكون هناك تطبيق عملي لذلك التوجيه الرباني، ولذا كانت السنة بالنسبة للقرآن بمكان عظيم . لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:2). وقد بلغت أهمية الاتباع وضرورته أن جعله تعالى السبيل لنيل محبته فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

([1]) مسند أحمد (28/ 410). قال المحقق "شعيب الأرنؤوط وآخرون" : إسناده صحيح رجاله ثقات.

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: 31) ، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾(الأحزاب:21).

لقد فقه صحابة رسول اللهﷺأن اتباع الرسولﷺهو سبيلهم للاستقامة ، ووسيلتهم للعمل بكتاب الله تعالى. فشمروا مسارعين في اقتفاء أثره، والتزام سنتهﷺ، والتنافس في محبته والدفاع عنه. وهو معهم ﷺ يرسخ ذلك في نفوسهم، ويؤكده في سلوكهم بقوله وفعله وتقريره.

ولذا فإنه لا يمكن تصور تربية بالقرآن في معزل عن قاعدة الاتباع لهديه عليه الصلاة والسلام. كيف لا وسيرته ترجمة وتفسير وبيان للقرآن الكريم.

ومن هنا جاء اختيار عنوان المشاركة في ملتقى التربية بالقرآن بعنوان:" أثر التربية باتباع الرسولﷺ وتطبيقاتها في القرآن الكريم".

أهداف البحث:

1. الكشف عن منهج القرآن الكريم في التربية.
2. إبراز أهمية اتباع الرسولﷺ في تحقيق التربية القرآنية.
3. بيان تفرد القرآن الكريم بمنهجه التربوي.
4. الإسهام في تأصيل البحوث المتعلقة بالتربية.
5. الخروج بتوصيات تخدم الباحثين في علم التربية بالقرآن.

منهج البحث:

سرت في هذه الدراسة وفق المنهج التحليلي للآيات القرآنية لإبراز منهج القرآن الكريم في التربية باتباع الرسولﷺ.

عناصر الموضوع:

المطلب الأول: اتباع الرسول ﷺ في القرآن الكريم (معناه، ومكانته).

المطلب الثاني: التربية في القرآن الكريم باتباع للرسول ﷺ (معناه، وأهميته).

المطلب الثالث: آثار التربية باتباع الرسول ﷺ:

الآثار الإيمانية.

الآثار العقلية.

الآثار النفسية.

الآثار السلوكية.

الآثار الحضارية.

المطلب الخامس: الخاتمة والتوصيات.

والله أسأل التوفيق والرشاد لما فيه خير الدنيا والآخرة..

المطلب الأول: اتباع الرسول ﷺ في القرآن الكريم (معناه، ومكانته).

أولا: معنى اتباع الرسول: وسنتناول في هذا المطلب ما يلي:

أ. **معنى الاتباع في اللغة:**

تعود كلمة الاتباع في اللغة إلى الجذر اللغوي: "تبع" قال ابن فارس:" يأتي الاتباع في اللغة التاء والباء والعين أصل واحد لا يشذ عنه من الباب شيء. وهو التلو والقفو."[1].

أما اشتقاقات هذا الجذر فقد بينت كتب اللغة أنها تشمل ما يلي:

"تَبَعَ، وتَباعا، الاتباع، التَّتبع، أَتَبع، استتبع، التبيع، التَّبَع، متابعة، التبعة، والتباعة، تابع، التُّبع"[2].

ويمكن تحديد معاني هذه الاشتقاقات فيما يلي :

1. اللحوق: تَبَعَ: تعني تبع الشيء تبوعا سرت في أثره، أو لحقه. وقال ابن منظور: "الاتباع: أن يسير الرجل وأنت تسير وراءه."[3]. وذلك التبع بالجسم. كما قال ابن منظور:" والتبع تارة يكون بالجسم، وتارة بالارتسام، والائتمار."ومن ذلك قوله تعالى: {فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ} [طه: 78].

---

(1) مقاييس اللغة/ (362/1).

(2) لسان العرب: مادة تبع، مقاييس اللغة/ ابن فارس (362/1-363).

(3) بصائر ذوي التميز (239/2).

2. التلو: تَتَلّى تَتبّع وتِلْوُ الشيء الذي يَتلُوه وهذا تِلْوُ هذا أي تَبَعُه. وتلا وتلّى بمعنى تبع. يقال: تَلّى الفَريضة إذا أتبعها النفلَ.قال تعالى: "وَالشَّمْس وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذا تَلَاهَا" وقوله تعالى:" الذين آتيناهم الكتاب يَتْلونه حقّ تِلاوَتِه" معناه: يَتّبعونه حقّ اتّباعه ويعملون به حق عمله. وفلان يَتْلو فلاناً أي يحاكيه ويَتْبَع فعله، وهو يُتْلي بَقِيَّة حاجته أي يَقْتَضِيها وَيَتَعهَّدها.[1]

3. الاقتداء والائتمار: قال ابن منظور: "واتبع القرآن: ائتم به وعمل بما فيه". ومنه قولهﷺ:"النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ"[2]. وعَنْ أَبِي مُوسَىﷺأَنَّهُ قَالَ:" إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَائِنٌ َكُمْ ذِكْرَى وَكَائِنٌ لَكُمْ أَجْرًا أَوْ كَانَ عَلَيْكُمْ وِزْرًا، فَاتَّبِعُوا الْقُرْآنَ وَلَا يَتَّبِعْكُمْ الْقُرْآنُ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ الْقُرْآنَ يَهْبِطْ بِهِ عَلَى رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ يَتَّبِعْهُ الْقُرْآنُ يَزُخُّ فِي قَفَاهُ فَيَقْذِفُهُ فِي جَهَنَّمَ"[3]. وهذا ما دل عليه قول أبي المظفر السمعاني: " وأما أهل السنة، قالوا: الأصل في الدين الاتباع، والمعقول تَبَعَ."[4].

4. التأخر: وتَبَعَ كل شيء ما كان على آخره. والتَّبع قوائم الدابة، وسميت لأنّه يتبع بعضُها بعضًا.

5. الخدمة: ومن ذلك قول سلمة بن الأكوع : " وَكُنْتُ تَبِيعًا لِطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ أَسْقِي فَرَسَهُ وَأَحُسُّهُ وَأَخْدِمُهُ"[5] وقوله تعالى:{أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ } [النور: 31] فسره ثعلب قال: هم اتباع الزوج ممن يخدمه[6].

6. النصير: قال ابن فارس: والتَبيع النصير، لأنه يَتْبعه نصره.[7]قال تعالى: { ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا } [الإسراء: 69]. قال أبو حيان : "التبيع قال ابن عباس: النصير"[1].

([1])لسان العرب: مادة: تلو؟ وانظر غريب الحديث للقاسم ابن سلام (174/4).

(2) صحيح البخاري ك: (المناقب) باب: (قول الله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى") ح3305، وصحيح مسلم ك34: (الإمارة) ح4804.

([3]) مصنف ابن أبي شيبة ك: (فضائل القرآن) (204/8) ح 29428. قال محقق التفسير من سنن سعيد بن منصور (1/ 50): والأثر سنده ضعيف لجهالة حال أبي كنانة.

([4]) أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة (ص: 579).

([5]) صحيح مسلم/ ك33: (الإمارة) ح131

([6])لسان العرب: مادة تبع.

(7)ابن فارس (362/1-363).

7. الموالاة: تابع بين الأمور تباعا والى. يقال: تابع بين الصلاة وبين القراءة والى بينهما ففعل هذا على إثر هذا بلا مهملة بينهما.
8. الإتقان والإحكام: تابع عمله وكلامه: اتقنه وأحكمه. وفي أمثال العرب: أتبع الفرس لجامها، يضرب مثلا للرجل يأمر برد الصنيعة وإتمام الحاجة. وعن أبي واقد الليثي قال: تابعنا الأعمال فلم نجد شيئا أبلغ في طلب الآخرة من الزهد في الدنيا. وعلق ابن منظور فقال: أي أحكمناها.
9. العاقبة: تباعة الْأَمر عاقبته وَمَا يَتَرَتَّب عَلَيْهِ من أثر.
10. الظل: فيسمى التُبُعُ بالتشديد لأنه يتبع الشمس.[2]

وبهذا نخلص إلى إن الاتباع في اللغة يدل على السير خلف المتبوع واللحوق به دون التقدم عليه بل التأخر عنه والائتمار بأمره والاقتداء به والعمل بعمله، وخدمته وملازمته وموالاته ونصرته كل ذلك بإحكام وإتقان، بما يعقب ذلك من أثر في حسن حال التابع.

وعلى ما تقدم فإن اتباع الرسولﷺ يتضمن اقتفاء أثره في أموره كلها، وعدم مخالفته أو التقدم عليه أو على أمره، وملازمة طاعته وموالاته ونصرته وتوقيره وتعظيمه وخدمته في حياته وبعد موته من خلال خدمة سنته ونشرها والذب عنها والتمسك بها، كل ذلك بإتقان وإحكام بما يعقبه من استقامة وهداية في حال التابع.

ب.الاتباع في الاصطلاح:

الاتباع هو الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ فِعْلِ الْغَيْرِ لِأَجْلِ أَنَّهُ فِعْلُ ذَلِكَ الْغَيْرِ[3]. وقيل هو: امتثال الأمر والعمل بما يأمر به المتبوع.[4]

وعلى هذا فإن اتباع الرسولﷺ : يعني العمل بما يأمر به ﷺ أو ينهى عنه.

قال ابن تيمية: "فلفظ الاتباع يكون للآمر الناهي، وللأمر والنهي، وللمأمور به والمنهي عنه. وهو الصراط المستقيم"[1].

([1]) البحر المحيط /أبو حيان (83/7).
([2]) المعجم الوسيط (1/ 81) ،لسان العرب /ابن منظور/ مادة: تبع.
([3]) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير/ الرازي (11/ 219).
([4]) التحرير والتنوير(7/423-224).

وقال أبو حيان: "وَمَعْنَى الِاتِّبَاعِ الِاقْتِدَاءُ فِيمَا جَاءَ بِهِ اعْتِقَادًا وَقَوْلًا وَفِعْلًا"[2].

قال الشنقيطي: " فَالْعَمَلُ بِالْوَحْيِ، هُوَ الِاتِّبَاعُ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ.". وقال: "وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ اتِّبَاعَ الْوَحْيِ لَا يُشْتَرَطُ فِيهِ إِلَّا عِلْمُهُ بِمَا يَعْمَلُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَحْيِ الَّذِي يَتَّبِعُهُ، وَأَنَّهُ يَصِحُّ عِلْمُ حَدِيثٍ وَالْعَمَلُ بِهِ، وَعِلْمُ آيَةٍ وَالْعَمَلُ بِهَا. [3]

وبهذا نخلص إلى اتباع الرسولﷺ في الاصطلاح: يعني العمل بأوامره واجتناب نواهيه.

وهذا ما دلت عليه الآيات الكريمة التي جاءت بالأمر باتباع الرسولﷺ، أو أمرت الرسولﷺ باتباع ما أنزل إليه. قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18)} [الجاثية: 18] قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ثم جعلناك يا محمد من بعد الذي آتينا بني إسرائيل، الذين وصفت لك صفتهم (عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأمْرِ) يقول: على طريقة وسنة ومنهاج من أمرنا الذي أمرنا به من قبلك من رسلنا (فاتَّبِعْها) يقول: فاتبع تلك الشريعة التي جعلناها لك (وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) يقول: ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون بالله، الذين لا يعرفون الحقّ من الباطل، فتعمل به، فتهلك إن عملت به."[4]

ج. دلالة آيات اتباع الرسول ﷺفي القرآن الكريم:

وردت كلمة (تبع) في القرآن الكريم (174) مرة، موزعة بين تسع وأربعون سورة. سبع وثلاثون منها سور مكية وهي (الأنعام، الأعراف، يونس، هود، يوسف،

([1]) الزهد والورع والعبادة / 25.

([2]) البحر المحيط في التفسير (5/ 194).

([3]) أضواء البيان (549/7 _ 550).

([4]) جامع البيان (22/ 70)

إبراهيم، الحجر، الإسراء، الكهف، مريم، طه، الحج، المؤمنون، الفرقان، الشعراء، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، سبأ، يس، الصافات، ص، الزمر، غافر، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، الطور، النجم، القمر، نوح، القيامة، المرسلات، النازعات). وإحدى عشر سورة مدنية وهي (البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، الرعد، النور، الفتح، محمد، الحديد). والثانية عشر (الرعد) على اختلاف فيها.

أما صيغ اشتقاق للكلمة فهي (تَبِعَ، تتبع، يتبع، أَتْبَع، نُتبع، يُتْبع، أُتْبع، اتَّبَعَ ، نَتَبع، اتْبعُ، التابعين، تبع، متتابعة، متبع، تبيع.) وهذا التنوع في الاشتقاق، مع تعدد السور يعطي دلالة على أهمية الكلمة، ومكانتها في القرآن الكريم.

وحيث أن دراستنا تتعلق باتباع الرسول ﷺ (ويدخل فيها اتباع الأنبياء بوجه عام) فسوف نكتفي بالإشارة إلى مواضع ورود الآيات الكريمة التي تضمنت الحديث عن اتباع الرسول ﷺ دون غيرها من الآيات التي تضمنت الحديث عن الاتباع. وهي: [البقرة: 38 ، 143] ،[آل عمران: 20، 31، 53، 162، 174] [النساء: 125] [المائدة: 15، 16] [الأنعام: 50،106] [الأعراف157، 158، 203] [الأنفال: 64] [التوبة: 117] [يونس:15، 109] [يوسف: 108] [إبراهيم: 36]، [النحل:123][الإسراء: 47] [طه: 47 ،123] [الفرقان: 8] [الشعراء: 215] [القصص: 49] [الأحزاب:2][يس: 11 ،20_21] [الزمر: 18] [غافر:7] [الزخرف:61] [محمد: 3] [الجاثية: 18] [الأحقاف:9] [القمر: 24]

وهذه الآيات دلت على ما يلي:

1. إن الاتباع فرض على رسولنا محمد ﷺ ، ويعني طاعة الله تعالى والتزام أمره، والاحتكام إلى شرعه. قال تعالى: { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18) } [الجاثية: 18، 19] ، {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106)} [الأنعام: 106] ، {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50) } [الأنعام: 50، 51] قال الطبري: (فإنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي، لأني عبده، وإلى أمره أنتهي، وإياه أطيع.)[1]. ولذا كانت سيرته عليه الصلاة والسلام ترجمة لمعاني القرآن، وأفعاله وأقواله تفسيراً وبياناً لكلام الله تعالى. فعَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ

([1]) جامع البيان (343/13).

الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: " كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: 4] "[1]. ولذا كان أسوة حسنة لمن أراد أن يتمسك بالقرآن، ويهتدي به، ويربي نفسه على معانيه وتوجيهاته.

2. إن الاتباع يؤدي إلى استقامة الحال، وحفظها من الاضطراب والخلل. قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3)} [محمد: 1 - 3] قال الطبري: "هذا الذي فعلنا بهذين الفريقين من إضلالنا أعمال الكافرين، وتكفيرنا عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، جزاء منا لكلّ فريق منهم على فعله. أما الكافرون فأضللنا أعمالهم، وجعلناها على غير استقامة وهدى، بأنهم اتبعوا الشيطان فأطاعوه، وهو الباطل.ــإلى أن قال : ــ وأما المؤمنون فكفّرنا عنهم سيئاتهم، وأصلحنا لهم حالهم بأنهم اتبعوا الحقّ الذي جاءهم من ربهم، وهو محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم، وما جاءهم به من عند ربه من النور والبرهان"(2). وقال تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (117) } [التوبة: 117]وقال تعالى: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63]

3. إن الاتباع هو سبيل الهداية والفلاح والفوز بصلاح الأحوال في الحياة كلها قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158) } [الأعراف:

([1])مسند أحمد (41/ 149).

([2]) جامع البيان (153/22).

157 – 159]. وقال تعالى:{وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203) } [الأعراف: 203].

قال ابن عاشور: "وَالْبَصَائِرُ جَمْعُ بَصِيرَةٍ وَهِيَ مَا بِهِ اتِّضَاحُ الْحَقِّ وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ }فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ [104]، وَهَذَا تَنْوِيهٌ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ خَيْرٌ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي يَسْأَلُونَهَا، لِأَنَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَ الدَّلَالَةِ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ بِوَاسِطَةِ دَلَالَةِ الْإِعْجَازِ وَصُدُورِهِ عَنِ الْأُمِّيِّ، وَبَيْنَ الْهِدَايَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالْإِرْشَادِ، وَالْبَقَاءِ عَلَى الْعُصُور.

وَإِنَّمَا جَمَعَ «الْبَصَائِرَ» لِأَنَّ الْقُرْآنِ أَنْوَاعًا مِنَ الْهُدَى عَلَى حَسَبِ النَّوَاحِي الَّتِي يَهْدِي إِلَيْهَا، مِنْ تَنْوِيرِ الْعَقْلِ فِي إِصْلَاحِ الِاعْتِقَادِ، وَتَسْدِيدِ الْفَهْمِ فِي الدِّينِ، وَوَضْعِ الْقَوَانِينِ لِلْمُعَامَلَاتِ وَالْمُعَاشَرَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَالدَّلَالَةِ عَلَى طُرُق النَّجَاحِ وَالنَّجَاةِ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مَهَاوِي الْخُسْرَانِ.

وَأَفْرَدَ الْهُدَى وَالرَّحْمَةَ لِأَنَّهُمَا جِنْسَانِ عَامَّانِ يَشْمَلَانِ أَنْوَاعَ الْبَصَائِرِ فَالْهُدَى يُقَارِنُ الْبَصَائِرَ وَالرَّحْمَةُ غَايَةٌ لِلْبَصَائِرِ، وَالْمُرَادُ بِالرَّحْمَةِ مَا يَشْمَلُ رَحْمَةَ الدُّنْيَا وَهِيَ اسْتِقَامَةُ أَحْوَالِ

الْجَمَاعَةِ وَانْتِظَامُ الْمَدَنِيَّةِ وَرَحْمَةَ الْآخِرَةِ وَهِيَ الْفَوْزُ بِالنَّعِيمِ الدَّائِمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ

بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97]."[1]

4. إن التوبة الصادقة تقتضي الاتباع واقتفاء أثر الرسول ﷺ في جميع أحواله قال تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7) } [غافر: 7].

قال الطبري: "يقول: وسلكوا الطريق الذي أمرهم أن يسلكوه، ولزموا المنهاج الذي أمرهم بلزومه، وذلك الدخول في الإسلام."[1] وقال ابن كثير :" أَيْ: فَاصْفَحْ عَنِ الْمُسِيئِينَ إِذَا تَابُوا وَأَنَابُوا وَأَقْلَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ، وَاتَّبَعُوا مَا أَمَرْتَهُمْ بِهِ، مِنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، {وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} أَيْ: وَزَحْزِحْهُمْ عَنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ، وَهُوَ الْعَذَابُ الْمُوجِعُ الْأَلِيمُ."[2].

([1]) التحرير والتنوير (9/ 238).

5. إن الاتباع علة توبة الرب على عبده، وتثبيته على الحق وحفظه من الانحراف، قال تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (117)} [التوبة: 117].

قال ابن عاشور: "ووصف المهاجرين والأنصار بـــــــــــــــ{الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ} للإيماء إلى أن لصلة الموصول تسببا في هذه المغفرة. ومعنى {اتَّبَعُوهُ} أطاعوه و لم يخالفوا عليه."[3]

6. إن الاتباع هو سبيل الإنسان لمعرفة الحق من الباطل، ومن خلاله تسلم الفطرة، ويتقد التفكير من معوقات الفهم ، وأزمة التصور المنحرف، وبذلك يعتدل السلوك، ويستقيم المنهج على الجادة. قال تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50) } [الأنعام: 50] قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهم: هل يستوي الأعمى عن الحق، والبصير به "والأعمى"، هو الكافر الذي قد عَمِى عن حجج الله فلا يتبيَّنها فيتبعها "والبصير"، المؤمن الذي قد أبصرَ آيات الله وحججه، فاقتدى بها واستضاء بضيائها "أفلا تتفكرون" "[4]

7. إن الاتباع يقتضي المداومة على الاتباع في جميع الأحوال والتسليم المطلق بما جاء من عند الله تعالى، وترك اتباع الكفار ومناهج حياتهم. قال تعالى: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (109) }[يونس:109] ، وقال تعالى:{اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106)} [الأنعام: 106].قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: اتبع، يا محمد، ما أمرك به ربك في وحيه الذي

([1]) جامع البيان (21/ 356).

([2]) تفسير ابن كثير (7/ 131)

([3]) التحرير والتنوير (10/ 219).

([4]) جامع البيان (11/ 372).

أوحاه إليك، فاعمل به، وانزجر عما زجرك عنه فيه، ودع ما يدعوك إليه مشركو قومك. من عبادة الأوثان والأصنام، فإنه لا إله إلا هو."[1].وقال ابن عاشور: "فَالْمَقْصُودُ مِنَ الْأَمْرِ الدَّوَامُ عَلَى اتِّبَاعِهِ. وَالْمَعْنَى: أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ اتِّبَاعًا لِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ. "[2].

8. خطورة ترك الاتباع على صحة الإيمان وإخلاص النية واستقامة المنهج قال تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33)} [محمد: 32، 33]، وقال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63]، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61)} [النساء:61]

9. إن اتباع الرسول وطاعته هي معنى طاعة الله تعالى واتباع ما أنزل قال تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80) } [النساء: 80]. وحيث إن دين الله تعالى كامل، وكتابه قد دل على كل خير، فإن اتباع الرسولﷺ يحقق للإنسان السعادة والصلاح في جميع أحواله، وعلاقاته.

10. في الاتباع نجاة من الخسران والذلة في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (134)} [طه: 134].

11. إن الاتباع هو الطريق الوحيد الموصل إلى الله تعالى دون ما سواه، وعليه فإن الاتباع هو الوسيلة الصحيحة التي يجب أن يسير عليها الإنسان في جميع حياته قال

تعالى:{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآَخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرً} [الأحزاب:21] . وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

إِلَّا مَنْ أَبَى) قالوا: يا رسول الله، ومن يَأْبَى؟ قَالَ: (مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عصاني فقد أبى).[1]

([1]) تفسير الطبري /جامع البيان (12/ 32).

([2]) التحرير والتنوير (7/ 423).

قال ابن القيم: " وَإِذَا كَانَتْ سَعَادَةُ الْعَبْدِ فِي الدّارَيْنِ مُعَلّقَةً بِهَدْيِ النّبِيّ ﷺفَيَجِبُ عَلَى كُلّ مَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ وَأَحَبّ نَجَاتَهَا وَسَعَادَتَهَا أَنْ يَعْرِفَ مِنْ هَدْيِهِ وَسِيرَتِهِ وَشَأْنِهِ مَا يَخْرُجُ بِهِ عَنْ الْجَاهِلِينَ بِهِ وَيَدْخُلُ بِهِ فِي عِدَادِ أَتْبَاعِهِ وَشِيعَتِهِ وَحِزْبِهِ وَالنّاسُ فِي هَذَا بَيْنَ مُسْتَقِلّ وَمُسْتَكْثِرٍ وَمَحْرُومٍ وَالْفَضْلُ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاَللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ."[2]

12. إن الاتباع يقتضي عدم مخالفة الرسول ﷺ والرضى بحكمه، والرجوع إليه عند الاختلاف، ونصرته، وتوقيره، وترك مشاقته، والخضوع له، وعدم رفع الصوت في حضرته، والدفاع عنه، والدعوة إلى دينه وفق طريقته، وتبليغ سنته والذب عنها. وقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36)} [الأحزاب: 36] وقال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65) } [النساء: 65]. قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7) } [الحشر:7]. قال الشيخ السعدي: "وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله، ثم أمر بتقواه التي بها عمارة القلوب والأرواح والدنيا والآخرة."[3]

ثانيا: مكانة اتباع الرسول ﷺفي القرآن الكريم:

من خلال استعراض الآيات التي تناولت الحديث عن اتباع الرسول ﷺ نجد أن الاتباع أصل من أصول الدين، وقضية كبرى من قضايا المعتقد. وهو أيضاً أصل التغير، وأساس الإصلاح والتهذيب والتقويم والتربية، فالاتباع منهج رباني فريد لتأسيس المجتمع الصالح، وبناء الحضارة الإنسانية المستقيمة.

([1]) صحيح البخاري/ ك99 : (الاعتصام بالكتاب والسنة)/ ب2:(الاقتداء بسنن الرسول ﷺ)/ ح6851.

([2]) زاد المعاد في هدي خير العباد ــ (1/ 65)

([3]) تيسير الكريم الرحمن/ 850.

فمن خصائص الطبيعة الإنسانية الجهالة والغفلة، وهي خلقت للعبودية والخضوع، فلاتزال بحاجة إلى معبود تخضع له، وتسلم له، يقوم على توجيهها وإصلاحها. وذلك لا يكون إلا من خلال صفوة الخلق، الذين اختارهم ﷻلحمل رسالته وتبليغها الناس، لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51) } [الشورى: 51] وهذا من تمام فضل الله وإحسانه على خلقه قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (164)} [آل عمران: 164، 165]. فمهمة الرسول التزكية والتعليم وإصلاح أحوال الناس، ولذا أوجب تعالى اتباع أنبيائه بمعنى تصديقهم وطاعتهم واقتفاء أثرهم وتوقيرهم ونصرتهم وملازمتهم ومحبتهم وعدم مخالفتهم والإخلاص لهم. إذ يتعذر على الإنسان تطبيق أوامر الله، وترك نواهيه بصورة صحيحة سالمة من التطرف أو الإفراط والتفريط دون أن يكون هناك نبي معصوم يتبعونه، فيما يدع وفيما يعمل. ويرجعون إلى منهجهﷺ ليُقيمُوا صحة مسلكهم، ويتحققوا من سلامة طريقتهم. قال تعالى:{فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)}[الأعراف: 157]، وقال تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53)} [آل عمران: 52 _53] .ولذا وقع من بعض الصحابةﷺ انحراف في التطبيق عندما خالفوا منهج رسول الله ﷺفي التعبد؛ فعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا! فَقَالُوا :وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ غُفِرَ (قَدْ غَفَرَ اللهُ) لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا.فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ:" أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟! أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ. لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ. فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي."[(1)]. ولذا فإن رسول اللهﷺ هو المعيار الذي يقيس به الإنسان سلامة منهج حياته من انحرافه، ومدى قربه أو بعده من الحق.

([1]) صحيح البخاري /: ك:(النكاح)/ب:(الترغيب في النكاح) /ح4776.

المطلب الثاني: التربية باتباع للرسول ﷺفي القرآن الكريم (معناها، وضوابطها).

أ. معنى التربية في القرآن الكريم:

تعني التربية: التنشئة . قال الراغب: "الربُ في الأصل التربية وهو إنشاء حالا فحالا إلى حد التمام"[1]. قال تعالى: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79)} [آل عمران: 79] قال مجاهد: "وهم فوق الأحبار"، لأن "الأحبارَ" هم العلماء، و"الرباني" الجامعُ إلى العلم والفقه، البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم."[2]

وقد وردت التربية في القرآن بألفاظ متعددة نوردها كما يلي:

الكفالة:

الكفالة: الضمان. والكافل: العائل والضامن. وهو يكفيني ويكفلني: يعولني وينفق علي[3]. قال تعالى في قصة مريم عليها السلام قال تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا } [آل عمران: 37] فالتقبل: التكفل في التربية والقيام بشأنها. والإنبات الحسن: عبارة عن حسن النشأة وسرعة الجودة فيها في خَلقة وخُلقه، (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) أي ضمها إلى إنفاقه وحضنه.فعن ابن عباس قال: أي سلك بها طريق السعداء[4].

التنشئة:

([1]) المفردات/184.

([2]) جامع البيان (544/6).

([3])بصائر ذوي التميز /الفيروز أبادي (366/4).

([4])انظر: المحرر الوجيز/ابن عطية(425/1)، وتفسير القرآن العظيم/ ابن كثير (28/2) والجامع لأحكام القرآن/ القرطبي (104/5).

الإنشاء إيجاد الشيء وتربيته[1]. قال تعالى : {أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} [الزخرف: 18]. أي: يربى ويشب في الحلية. وقال أبو حيان: ينتقل في عمره حالا فحالا في الحلية[2]. ونشوءاً: إذا شببت فيهم[3].

الإيواء:

الإيواء: من أويت منزلي وإلى منزلي أُوِيّاً وإوِيّاً وأَوَّيْتُ وتأَوَّيتُ: عدت. قال تعالى :{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6)} [الضحى: 6] أي: ألم يجدك يتيما صغيرا حين مات

أبواك ولم يخلفا لك مالا ولا مأوى فجعلت لك مأوى تأوي إليه، وضمك إلى عمك أبي طالب حتى أحسن تربيتك وكفاك المؤنة[4]. وعَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَان إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشه قَالَ : (الْحَمْد لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا) ... وَقِيلَ : مَعْنَى آوَانَا هُنَا: رَحِمَنَا).[5]

التزكية:

الزكاء: الزكاة في اللغة: الطهارة والنماء والبركة والمدح وكله قد استعمل في القرآن والحديث[6] وقال الراغب: (وبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة. وهو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره.)[7]. قال تعالى:{وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13)} (13)} [مريم: 13] أي: صلاحا.

الرعاية:

---

(1) بصائر ذوي التميز (5/ 52). (164/2).

(2) البحر المحيط (363/9).

(3) الجامع لأحكام القرآن (19/19).

(4) معالم التنزيل/ البغوي (456/8).

(5) شرح النووي على صحيح مسلم (34/17).

(6) لسان العرب/ ابن منظور/ مادة: زكا.

(7) المفردات / 213-214.

الراعي أي: الوالي. [1]. وجُعل الراعي والرعاء للحفظ والسياسة قال تعالى: {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} [الحديد: 27]أي ما حافظوا عليها حق المحافظة، ويسمى كل سائس لنفسه أو لغيره راعيا([2]).

وقال الإمام النووي: (قَالَ الْعُلَمَاء: الرَّاعِي هُوَ الْحَافِظ الْمُؤْتَمَن الْمُلْتَزِم صَلَاح مَا قَامَ عَلَيْهِ, وَمَا هُوَ تَحْت نَظَره, فَفِيهِ أَنَّ كُلّ مَنْ كَانَ تَحْت نَظَره شَيْء فَهُوَ مُطَالَب بِالْعَدْلِ فِيهِ, وَالْقِيَام بِمَصَالِحِهِ فِي دِينه وَدُنْيَاهُ وَمُتَعَلِّقَاته)([3]).

الصناعة:

صَنَعَه يَصْنَعُه صُنْعا، فهو مصنوع: عمله. الصُّنَّاع ماهرٌ في صناعته. إذا كانا حاذقين فيما يصنعانه. واصطنعه: اتخذه. وفلان صَنِيع فلان إذا رباه وأدَّبه وخرَّجه. وقال تعالى: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41) } [طه: 41]: قال الشيخ السعدي:(أي أجريت عليك صنائعي ونعمي، وحسن عوائدي، وتربيتي، لتكون لنفسي حبيباً مختصاً، وتبلغ في ذلك مبلغا لا يناله أحد من الخلق، إلا النادر منهم..)([4])

من هذه المعاني لمفهوم التربية في نصوص الوحي نجد أن مفهوم التربية يتضمن ما يلي:

أولاً: التربية تعني العناية بتغذية الصغير، وإشباع حاجاته الفطرية.

ثانيا: التربية تعني حسن التنشئة في مراحل العمر المختلفة حالا فحالا في عبادة الله تعالى.

ثالثا: التربية تعني المهارة والحذق في التأديب والتخريج.

رابعا: التربية تعني المراقبة والرحمة والرعاية والإنفاق والحفاظ على المرَبى والقيام بمصالحه في دينه ودنياه وحسن سياسته وتوجيهه.

خامسا: التربية تعني تطهير النفس بعبادة الله تعالى، بحيث تستحق الأوصاف المحمودة في الدنيا، والأجر في الآخرة.

---

(1) مقاييس اللغة/ ابن فارس (408/2).

(2) المفردات/ للراغب ص 198.

(3) شرح النووي على صحيح مسلم (213/12) .

(4) تيسير الكريم الرحمن ص (506).

سادسا: التربية تعني الرفق واللين في الدعوة للاحتراز من جميع الخطايا، والتخلق بالأخلاق الحميدة.
سابعا: التربية تتضمن سرعة الجودة في الخَلق والخُلق.
ثامنا: التربية فعل موجه نحو الإنسان منه ما يكون من فعل الله تعالى وفضله على عبده بما يجريه عليه من أقدار، ويدخل في هذا هداية الإنسان إلى الصراط المستقيم، ومنه ما يكون من فعل البشر الصادر عنهم قصدا من أجل تربية الإنسان وتعليمه وتأديبه وهذا فرع عن الأول.
ومن هنا يمكننا أن نخلص إلى أن تعريف التربية إجرائيا في الكتاب والسنة تعني:
المهارة في التنشئة الخَلقية والخُلقية في جميع مراحل حياة الإنسان، وفق الكتاب والسنة بما يضمن بعد توفيق الله تعالى من جودة تخريج الإنسان المستقيم على الإسلام القادر على القيام بتكاليف العبودية المستحق للأوصاف المحمودة في الدنيا، والثواب في الآخرة.
أما معنى الاتباع في القرآن الكريم فقد دلت جميع الآيات التي تقدمت الإشارة إليها على إن المقصود بالاتباع في القرآن الكريم، هو ما ذكره العلماء في تعريف الاتباع اصطلاحا. وهو اتباع أوامر رسول اللهﷺ واجتناب نواهيه.

ب. علاقة التربية بالاتباع:

من خلال التعريف الإجرائي للتربية في ضوء الكتاب والسنة، ومن خلال استعراض دلالات الاتباع في القرآن الكريم، نجد أن العلاقة بين التربية والاتباع علاقة تلازم، إذ لا يمكن أن تكون هناك تربية دون اتباع، أو اتباع دون تربية على معنى الاتباع وحقيقته. **فالتربية مهارة في التنشئة، والاتباع هو المنهج الذي تلتزم به التربية في ممارسة تلك المهارة؛** بما يضمن تخريج شخصية مستقيمة قادرة على حمل أمانة التكليف، وعمارة الأرض، والوصول إلى الخيرية التي خص الله تعالى بها هذه الأمة.

ج. معنى التربية باتباع الرسولﷺ:

تعني التربية بالاتباع تنشئة الفرد بقدر استطاعته على طاعة رسول الله ﷺ بالتزام أوامره واجتناب نواهيه.

قال تعالى:[وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (109)] [يونس: 109] قال الشيخ السعدي:"{وَاتَّبِعْ} أيها الرسول {مَا يُوحَى إِلَيْكَ}
علمًا، وعملا وحالا ودعوة إليه، {وَاصْبِرْ} على ذلك، فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة، فلا تكسل، ولا تضجر، بل دم على ذلك، واثبت."[1]

فالأمر بالصبر دليل على أن هناك جهد يبذله المرء في تطبيق الاتباع، وضبط النفس حتى تستقيم على أمر الله تعالى.

د. ضوابط التربية باتباع الرسولﷺ في القرآن الكريم:

تعتمد التربية بالاتباع على عدد من الضوابط التي يجب الالتزام حتى يتحقق للإنسان التربية الصحيحة، بما يضمن بعد توفيق الله تعالى، من تخريج جيل صالح قادر على تحمل المسؤولية، وأداء الأمانة، والنهضة بأمته ورقي مجتمعه. وهذه الضوابط مستخلصة من الآيات الكريمة التي وجهت إلى ضرورة اتباع الرسولﷺ، فقال تعالى:

{وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158) } [الأعراف: 156 - 159].

فتضمنت هذه الآيات ضوابط الاتباع التالية:

أولا: العلم بهﷺ:

([1]) تيسير الكريم المنان

الاتباع لا يتحقق إلا في ظل العلم بهذا (الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ)الذي تحدثت عنه الكتب السابقة، ولذا بين ابن عباس في تفسيره لهذه الآية شيئا من سيرتهﷺ فقال: "هُوَ نَبِيُّكُمْ كَانَ أُمِّيًّا لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ وَلَا يَحْسِبُ."[1]. ولقد تضمن القرآن الكريم كثيراً من الآيات والسور التي تصف أحوال رسول اللهﷺ، وتوضح سيرته، وتكشف حتى خلجات نفسه، وتطلعاته المستقبلية، وتحلل مواقفه، وتعطي دلالات عظيمة لفهم شخصه الكريم عليه الصلاة والسلام، وأهمية معرفة سيرته وفقه معانيها، وذلك حتى يستطيع المسلم تهذيب نفسه، واصلاح أحواله وفق منهج بين واضح. فمن ذلك قوله تعالى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} [الأحزاب: 37] قال السعدي وهو يبين فوائد هذه الآية الكريمة: " منها: أن التعليم الفعلي، أبلغ من القولي، خصوصا، إذا اقترن بالقول، فإن ذلك، نور على نور.

ومنها: أن المحبة التي في قلب العبد، لغير زوجته ومملوكته، ومحارمه، إذا لم يقترن بها محذور، لا يأثم عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمنيته، أن لو طلقها زوجها، لتزوجها من غير أن يسعى في فرقة بينهما، أو يتسبب بأي سبب كان، لأن الله أخبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم، أخفى ذلك في نفسه.

ومنها: أن الرسول صلى الله عليه وسلم، قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئًا مما أوحي إليه، إلا وبلغه، حتى هذا الأمر، الذي فيه عتابه.

وهذا يدل، على أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحي إليه، ولا يريد تعظيم نفسه."[2] ومن ذلك ما جاء في سورة الضحى والشرح والمجادلة والتحريم وغيرها من القرآن.

ثانيا: الإيمان به:

إن من أهم ضوابط الاتباع الإيمان بوجوب اتباعه فيما يأمر به وينهى عنه، ومجاهدة النفس على ذلك الاتباع، وتربيتها على ما كان عليهﷺ سواء على مستوى المبادئ

([1]) معالم التنزيل (3/ 288).

([2])تيسير الكريم الرحمن (ص: 666).

والقيم التي يدعوا إليها، أو على مستوى الأعمال التي كان يقوم بها، والأحوال التي كان عليها، أو الالتزام بالتوجيهات التي أمر بها أو نهى عنها. لقوله تعالى : {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7)} [الحشر: 7] قال ابن كثير :"أَيْ: مَهْمَا أَمَرَكُمْ بِهِ فَافْعَلُوهُ، وَمَهْمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يَنْهَى عَنْ شَرٍّ."[1] .

ولما كان ما أمر به أو نهى عنه يدخل في أبواب كثيرة ومنها ما يتعلق بالتربية وإصلاح النفس، دل على وجوب الإيمان باتباعه في ذلك الباب.

ثالثا: الاعتدال والتوسط في اتباعهﷺ:

اتباع الرسولﷺ طريق حق بين طرق متطرفة، فرغم أن اتباعهﷺ فرض على المكلف، إلا أن الاتباع يجب أن يكون وفق ما شرع الله تعالى، وفي ذلك حماية للمتبع من مسلكين خطيرين وهما:

الأول: الغلو الاعتقادي: وهو رفع رسول اللهﷺفوق مقام العبودية، فيقع المتبع في تأليهه وتعظيمه فوق مكانته كبشر، كما وقعت النصارى مع المسيح ابن مريم ولذا قال

تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)} [الكهف: 110]. وعَنْ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ"[2]. ولذا فإن القرآن الكريم كثيرا ما يصف رسول اللهﷺ بصفة العبودية، ويذكرها في مقامات التشريف، وفي ذلك دلالة على أن شرف العبد بحسن تحقيق معنى العبادة، وأن علة علو قدر رسول اللهﷺ تحقيقه لكمال العبودية لله تعالى، حتى صارت سيرته المعيار الذي تقاس به صحة العبودية من نقصها أو خللها. قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} [الإسراء: 1] ، وقال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1)} [الكهف:1] ، وقوله: {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10)} [النجم: 10] .

([1]) تفسير القرآن العظيم (8/ 67).

([2]) مسند أحمد (1/ 295). وقال شعيب الأرناؤوط: "حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيحين".

الثاني: الغلو العملي، فيشدد على نفسه تشديدا يخالف هديهﷺ ، إذ التشدد يخرج الإنسان من الاعتدال والوسط إلى التطرف والغلو والعنت والمشقة في الدين والله تعالى يقول: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: 78]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺقَالَ: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ.)[1] .

فالواجب على الإنسان موافقة هدي المصطفى ﷺفي عبادته وأخلاقه ومعاملاته وفي شؤونه وأحواله جميعا إلا في حالتين:

الأولى: ما كانت خاصة به وحده لا يشاركه فيها أحد، كالوصال في الصيام، والزواج فوق أربع، وعدم أكل الصدقة، ونحوها مما جاء النص ببيانه.

الثانية: ما كانت من الأفعال الجبلية الطبيعية كالقيام والقعود والنوم ونحوها من الأمور التي تقتضيها الطبيعية قبل الشريعة. فهذه مباحة لا يجب علينا التأسي به.

أما ما دون ذلك مما ورد فيه بيان لرسول اللهﷺ، قولا أو فعلا أو تقريرا فإن الإنسان مكلف باتباعه في ذلك. وذلك كهيئة أداء تلك الأعمال الجبلية مثل الشرب جالسا،

والنوم على الشق الأيمن، والنهي عن الأكل بالشمال، وغيرها من الآداب فهي تبقى في دائرة الاتباع. ويتفاوت حكم الاتباع فيها بين الوجوب أو الندب أو الكراهة أو الحرمة أو الإباحة على ما هو مقرر عند الفقهاء.

إلا أنه يجب الحذر مما ابتلي به كثير من المسلمون من التعامل مع سنة المصطفى ﷺعلى أنها من فضائل الأعمال. فهذا أوقع الكثير في التفريط في فرض الاتباع، وضعف تطبيقه كمنهج حياة يجب الاستقامة عليه، والتقيد به. فاستبدلت السنة بالمناهج الفكرية، والنظريات الفلسفية، والآراء التربوية الوضعية. وأصبح الحديث عن الجوانب التربوية في السنة يأتي في الفوائد والطرائف والحواشي، بدل أن يكون في الأصول والمقاصد والمقدمات. وحُصر الاتباع فيما لا يوقع الإنسان في البدعة أو انتهاك محرم أو ترك فرض وتضيع واجب.

ثالثا: التعزير والتوقير:

إن لرسول اللهﷺ مكانة عظيمة عند الله تعالى جعلت الأنبياء من قبله يبشرون به، ويلزم اتباعهم باتباعه عند مبعثه قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ}. وحتى يتحقق صدق الاتباع، ويؤتي ثماره المرجوة كان لابد من تعزيره وتوقيره كما أمر بذلك ﷻ.فالتعزيز:

([1]) صحيح البخاري : ك(الإيمان)/ ب28: (الدين يسر)/(ح39).

يعني النصرة. والتوقير: التعظيم الصادر عن الهيبة والإجلال[1]. وقال الطبري: "ومعنى التعزير في هذا الموضع: التقوية بالنُّصرة والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال."[2].

وقال تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3)} [الفتح:1- 3] قال ابن عاشور:"{إِنَّا فَتَحْنَا فَتْحًا مُبِينًا} لِأَجْلِكَ لِغُفْرَانِ اللَّهِ لَكَ وَإِتْمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ، وَهِدَايَتِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَنَصْرِكَ نَصْرًا عَزِيزًا .. َجُعِلَتْ مَغْفِرَةُ الله للنبيء ﷺعِلَّةً لِلْفَتْحِ لِأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ مَا أَرَادَ اللَّهُ حُصُولَهُ بِسَبَبِ الْفَتْحِ، وَلَيْسَتْ لَامُ التَّعْلِيلِ مُقْتَضِيَةً حَصْرَ الْغَرَضِ مِنَ الْفِعْلِ الْمُعَلَّلِ فِي تِلْكَ الْعِلَّةِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَشْيَاءِ تَكُونُ لَهَا أَسْبَابٌ كَثِيرَةٌ فَيُذْكَرُ بَعْضُهَا مِمَّا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ وَإِذْ قَدْ كَانَ الْفَتْحُ لكرامة النبيء ﷺعَلَى رَبِّهِ تَعَالَى كَانَ مِنْ عِلَّتِهِ أَنْ يغْفر الله لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَغْفِرَةً عَامَّةً إِتْمَامًا لِلْكَرَامَةِ فَهَذِهِ مَغْفِرَةٌ خَاصَّة بالنبي ﷺ هِيَ غَيْرُ الْمَغْفِرَةِ الْحَاصِلَةِ لِلْمُجَاهِدِينَ بِسَبَبِ الْجِهَادِ وَالْفَتْحِ.

فَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ عِنْدَ حُصُولِ هَذَا الْفَتْحِ غُفْرَانَ جَمِيعِ مَا قَدْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ عَلَى مِثْلِهِ رُسُلَهُ حَتَّى لَا يبْقى لرَسُوله ﷺمَا يَقْصُرُ بِهِ عَنْ بُلُوغِ نِهَايَةِ الْفَضْلِ بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ.

فَجَعَلَ هَذِهِ الْمَغْفِرَةَ جَزَاءً لَهُ عَلَى إِتْمَامِ أَعْمَالِهِ الَّتِي أُرْسِلَ لِأَجْلِهَا مِنَ التَّبْلِيغِ وَالْجِهَادِ وَالنَصَبِ وَالرَّغْبَةِ إِلَى اللَّهِ. فَلَمَّا كَانَ الْفَتْحُ حَاصِلًا بِسَعْيِهِ وَتَسَبُّبِهِ بِتَيْسِيرِ اللَّهِ لَهُ ذَلِكَ

جَعَلَ اللَّهُ جَزَاءَهُ غُفْرَانَ ذُنُوبِهِ بِعِظَمِ أَثَرِ ذَلِكَ الْفَتْحِ بِإِزَاحَةِ الشِّرْكِ وَعُلُوِّ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَكْمِيلِ النُّفُوسِ وَتَزْكِيَتِهَا بِالْإِيمَانِ وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ حَتَّى يَنْتَشِرَ الْخَيْرُ بِانْتِشَارِ الدِّينِ

وَيَصِيرُ الصَّلَاحُ خُلُقًا لِلنَّاسِ يَقْتَدِي فِيهِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ."[3]

---

(1) طريق الهجرتين وباب السعادتين/ابن القيم (ص: 292).

(2) جامع البيان (208/22).

(3) التحرير والتنوير (26/ 147).

وقد تمسك صحابة رسول اللهﷺ بهذا الأمر الإلهي فكانوا في غاية التعظيم له والنصرة والإجلال والتقدير، مما جعل شعارهم "السمع والطاعة" كما قال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ
قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51)} [النور: 51]

رابعا: التأسي والطاعة وعدم المخالفة:

من ضوابط الاتباع التأسي بهﷺ كما أمر بذلك ﷻ فقال: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21) } [الأحزاب: 22] قال ابن كثير: "هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ؛ وَلِهَذَا أُمِرَ النَّاسُ بِالتَّأَسِّي بِالنَّبِيِّﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ، فِي صَبْرِهِ وَمُصَابَرَتِهِ وَمُرَابَطَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ وَانْتِظَارِهِ الْفَرَجَ مِنْ رَبِّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى لِلَّذِينِ تَقَلَّقُوا وَتَضَجَّرُوا وَتَزَلْزَلُوا وَاضْطَرَبُوا فِي أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} أَيْ: هَلَّا اقْتَدَيْتُمْ بِهِ وَتَأَسَّيْتُمْ بِشَمَائِلِهِ؟ وَلِهَذَا قَالَ: {لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}"[1]. ولذا أو جب ﷻ طاعته وحذر من مخالفة أمره فقال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65) } [النساء: 65] وقال تعالى: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) } [النور: 63، 64] قال السعدي: "أي: يذهبون إلى بعض شئوهم عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شئونه؟ " وإنما ترك أمر الله من دون شغل له."[2]

خامسا: محبة رسول اللهﷺ:

ويقصد به المحبة الشرعية وهي من أعظم الواجبات وأجل القربات. وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِﷺ:" لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ،

([1]) تفسير القرآن العظيم (6/ 391).

([2]) تيسير الكريم الرحمن (ص: 577).

وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ."[1].

وعنهﷺأَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ: " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُوقَدَ لَهُ نَارٌ فَيُقْذَفَ فِيهَا." [2]

فالمحبة ضابط للاتباع لأن المحبة تقتضي الموافقة للمحبوب فيما يحب وما يبغض. وذلك شامل للأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة. وعلى قدر عظم المحبة في القلب تعظم المتابعة والنصرة والتبجيل والتوقير والعمل بالسنة والحرص على القيام بها.ولقد بلغ الصحابة مبلغا عظيما في محبتهم لرسول اللهﷺ، مما جعلهم يضحون بأنفسهم وأموالهم وديارهم محبة ونصرة وتعظيما له. يقول عمرو بن العاص واصفا حبه لرسول اللهﷺ: "وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِﷺ وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ."[3] وجاء في وصف حال صحابة رسول اللهﷺ يوم الحديبية:" ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺبِعَيْنَيْهِ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى المُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺمُحَمَّدًا،"[4]ولذا فإن صحابة رسول اللهﷺ لما حققوا كمال محبته، حَسُنَ اتباعهم لسنته، فانتفعوا بالقرآن العظيم، فكان لهم نوراً وشفاء وهداية ومنهج حياة. حتى وصفهم تعالى بقوله: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا.} [الفتح: 29].

([1]) مسند أحمد (20/ 202).قال شعيب الأرنؤوط :"إسناده صحيح على شرط الشيخين".

([2]) صحيح البخاري ك2: (الإيمان) / ب8:(حلاوة الإيمان)(ح16).

([3]) صحيح مسلم ك1: (الإيمان)،/ب:54(كون الإسلام يهدم ما قبله)(ح121)

([4]) صحيح البخاري ك58: (الشروط) /ب15: (الشروط في الجهاد)(ح2582).

المطلب الثالث: آثار التربية باتباع الرسولﷺ:

للتربية باتباع الرسولﷺ آثار عظيمة في صلاح أحوال الإنسان، وتهذيب سلوكه، واستقامة شأنه قال ابن قدامة: "وفي اتباع السنة بركة موافقة الشرع، ورضى الرب سبحانه وتعالى ورفع الدرجات، وراحة القلب، ودعة البدن، وترغيم الشيطان، وسلوك الصراط المستقيم."[1] ومن تلك الآثار ما يلي:

الآثار الإيمانية:

والتي من أعظمها حصول محبة الله تعالى لعبده قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31)} [عمران: 31] فإذا أحب الله عبده وفقه لكل خير كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ﷩، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ."[2]. قال ابن حجر:" وَالْمَعْنَى تَوْفِيقُ اللَّهِ لِعَبْدِهِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يُبَاشِرُهَا بِهَذِهِ الْأَعْضَاءِ وَتَيْسِيرُ الْمَحَبَّةِ لَهُ فِيهَا بِأَنْ يَحْفَظَ جَوَارِحَهُ عَلَيْهِ وَيَعْصِمَهُ عَنْ مُوَاقَعَةِ مَا يَكْرَهُ اللَّهُ مِنَ الْإِصْغَاءِ إِلَى اللَّهْوِ بِسَمْعِهِ، وَمِنَ النَّظَرِ إِلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ بِبَصَرِهِ، وَمِنَ الْبَطْشِ فِيمَا لَا يَحِلُّ لَهُ بِيَدِهِ، وَمِنَ السَّعْيِ إِلَى الْبَاطِلِ بِرِجْلِهِ."[3]

فهذه الآثار الإيمانية التي يكتسبها العبد بسبب تحقيق الاتباع، كفيلة بتربية الفرد وتنمية ذاته تربية تجعل منه مواطناً صالحاً، وفرداً قادراً على استثمار طاقاته وامكانيته وتوجيهها نحو الطريق الذي يعود بالخير والنماء والتقدم لنفسه ومجتمعه. إذ إن التربية الإيمانية تذكي في النفس الشعور بالمسؤولية، وترسخ لدى الفرد قيم الحق والخير والعدل، فتجعله يسعى في الأرض لنشر الخير والعمل به، وفق رؤية صحيحة وبصيرة من أمره. كما قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108) } [يوسف: 108]

([1]) ذم الموسوسين (41).

([2])صحيح البخاري (ح6502).

([3]) فتح الباري (11/ 344).

قال الشيخ السعدي:" {قُلْ} للناس {هَذِهِ سَبِيلِي} أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، {أَدْعُو إِلَى اللَّهِ} أي: أحثُّ الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، وأرغِّبهم في ذلك وأرهِّبهم مما يبعدهم عنه.
ومع هذا فأنا {عَلَى بَصِيرَةٍ} من ديني، أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية. {وَ} كذلك {مَنِ اتَّبَعَنِي} يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره. {وَسُبْحَانَ اللَّهِ} عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله."[1]

الآثار العقلية:

ينمو العقل ويتغذى بالعلم النافع. ولما كان الإنسان مكرما بالعقل، كان خطاب الله تعالى للناس بالقرآن المنزل الموصوف بقوله: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51)}[العنكبوت: 48 - 51]، ولذا كانت مهمة الرسول ﷺالتعلم والتعليم قال تعالى:{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2)} [الجمعة: 2].ومنذ بداية نبوة المصطفىﷺ انطلق من هذا الأصل العظيم. فأول آية نزلت عليه أُمر فيها بالتعلم. وكان الوحي يترل عليه ليعلمه أمر الدين، ويبلغه آيات الله تعالى، ويأمره باتباع الآيات وحسن الانصات إليها، وكان عليه الصلاة والسلام يعالج من التتريل ما يعالج فلم يزده ذلك إلا صبراً على تلقي العلم، وحرصاً على حفظه، وطلب الزيادة منه، وحبا ورغبة في كثرة نزول الوحي عليه فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺلِجِبْرِيلَ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا»، فَنَزَلَتْ: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا} [مريم: 64][2]وقال تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19)} [القيامة: 16 - 19]. قال ابن كثير:" أَيْ: فَاسْتَمِعْ لَهُ، ثُمَّ اقْرَأْهُ كَمَا أَقْرَأَكَ، {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} أَيْ: بَعْدَ حِفْظِهِ وَتِلَاوَتِهِ نُبَيِّنُهُ لَكَ وَنُوَضِّحُهُ، وَنُلْهِمُكَ مَعْنَاهُ عَلَى مَا أَرَدْنَا وَشَرَعْنَا."[3].

([1]) تيسير الكريم الرحمن (ص: 406)
([2])صحيح البخاري (ح4731).
([3])تفسير القرآن العظيم (8/ 278).

وقد امتن الله تعالى على نبيه بأنه تولى تعليمه وتفهيمه فقال تعالى: {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113) } [النساء: 113]. وقد امتد هذا المنهج في الحرص على التعلم والتعليم إلى اتباع الأنبياء، فكان أكثرهم تبعاً هو من كان أكثر الناس علما به وبدينه وبسيرته وهم العلماء ورثة الأنبياء. قال تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79)} [آل عمران: 79] قال الطبري: " يعني: ثم يدعو الناس إلى عبادة نفسه دون الله، وقد آتاه الله ما آتاه من الكتاب والحكم والنبوة. ولكن إذا آتاه الله ذلك، فإنما يدعوهم إلى العلم بالله، ويحدوهم على معرفة شرائع دينه، وأن يكونوا رؤساء في المعرفة بأمر الله ونهيه، وأئمةً في طاعته وعبادته، بكونهم معلِّمي الناس الكتاب، وبكونهم دَارسيه."[1]. ولذا وصف الله ﷻ العلماء بأنهم أهل النهى وأهل الشهادة وأهل العقل وأهل البصيرة وأهل التذكر والاتعاظ والوعي والإدراك. أما من أعرض عن اتباع الأنبياء فهم الجاهلون، والضالون، والسفهاء، والغافلون، واشباه الأنعام، وهم أهل التقليد والعمى والزيغ والغي وبلادة التفكير. كما قال تعالى: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (127) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (128)} [طه: 123 - 128].

إن الأثر العقلي الذي يحدثه اتباع الرسولﷺ يزيد العقل الإنسان إبداعا وذكاء ويقظة، إذ إن الاتباع يقوم على العلم والبينة والفهم لما يراد العمل به أو الكف عنه. وليس اتباعا يقود إلى التخلف والرجعية والتبعية الفكرية بدون دليل ولا حجة كما هو حال المشركين الذين أخبر تعالى عنهم في قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (170) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (171)} [البقرة: 170، 171] قال الطبري:" قال الله تعالى ذكره: "أوَ لو كانَ آباؤهم" -يعني: آباء هؤلاء الكفار الذين مضوا على كفرهم بالله العظيم-"لا يعقلون شيئًا" من دين الله وفرائضه، وأمره ونهيه، فيُتَّبعون على ما سَلكوا من الطريق، ويؤتمُّ بهم في أفعالهم -"ولا يَهتدون" لرشد، فيهتدي بهم غيرهم، ويَقتدي بهم من طَلب الدين، وأراد الحق والصواب؟ يقول تعالى ذكره لهؤلاء الكفار: فكيف أيها الناس تَتَّبعون ما وجدتم عليه آباءكم فتتركون ما

---

[1] جامع البيان (6/ 538).

يأمرُكم به ربكم، وآباؤكم لا يعقلون من أمر الله شيئًا، ولا هم مصيبون حقًّا، ولا مدركون رشدًا؟ وإنما يَتّبع المتبعُ ذا المعرفة بالشيء المستعملَ له في نفسه، فأما الجاهل فلا يتبعه -فيما هو به جاهل- إلا من لا
عقل له ولا تمييز."[1].

ولقد أحدثت التربية على الاتباع لدى الرعيل الأول ومن سار على خطاهم؛ نهضة عقلية وفكرية عظيمة، استطاعت _بعد توفيق الله تعالى_ أن تبني حضارة فريدة في التاريخ، امتدت نهضتها إلى جميع الأمم قاطبة فأخرجتها من الظلمات إلى النور، ومن التخلف إلى التقدم والنهضة.

الآثار النفسية:

إن من مهمة الرسولﷺ تزكية النفس وتطهيرها وتهذيبها قال تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)} [البقرة: 129] قال السعدي:" {وَيُزَكِّيهِمْ} بالتربية على الأعمال الصالحة والتبري من الأعمال الردية، التي لا تزكي النفوس معها."[2].

فالاتباع ليس سلوك ظاهري يأتي به المرء ولا علاقة له بشعور المرء، أو أفكاره وأخلاق قلبه. بل الاتباع يقتضي اتباع ما جاء عنهﷺ فيما يتعلق بأخلاق النفس، ونوايا القلب ومقاصده وما يعتريه من مشاعر وأحاسيس وأفكار. فيعمد المرء إلى مراقبتها وإصلاحها وتقويمها لأنها العمدة في صلاح الظاهر واستقامته كما قالﷺ: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ" وقولهﷺ: " أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ"[3]. ولذا تضمنت أوامره ونواهيه عليه الصلاة والسلام توجيهات عظيمة تتعلق بإصلاح النفس وسبل تنميتها؛ ومن ذلك ما رواه أَبو هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَنْ

([1]) جامع البيان / (3/ 307).

([2]) تيسير الكريم المنان (66/1).

([3]) صحيح البخاري ك (الإيمان)/ ب (فضل من استبرأ لدينه)/ ح (52).

سَرَّهُ أَنْ يَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ، فَلْيُحِبَّ الْعَبْدَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " [1]. وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:" لَا طِيَرَةَ. وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ. قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ."[2] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " إِنَّ أَكْثَرَ مَا يُدْخِلُ مِنَ النَّاسِ النَّارَ الْأَجْوَفَانِ "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْأَجْوَفَانِ؟ قَالَ: " الْفَرْجُ وَالْفَمُ "، قَالَ: " أَتَدْرُونَ أَكْثَرَ مَا يُدْخِلُ الْجَنَّةَ؟ تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ "[3] .

الآثار السلوكية:

من أهم آثار اتباع الرسولﷺ أن يرتقي الإنسان في سلوكه وعاداته وأخلاقه، فلا يصدر عنه إن إلا كل جميل، ولا يرى منه ما يشين .قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174)} [النساء: 174] قال الطبري: "قد جاءتكم حجة من الله تبرهن لكم بُطُولَ ما أنتم عليه مقيمون من أديانكم ومللكم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، الذي جعله الله عليكم حجة قطع بها."[4] وقال السعدي: " وفي قوله: "{مِن رَّبِّكُمْ} ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم الذي رباكم التربية الدينية والدنيوية، فمن تربيته لكم التي يحمد عليها ويشكر، أن أوصل إليكم البينات، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم، والوصول إلى جنات النعيم."[5].

الآثار الحضارية:

إن اتباع الرسولﷺ ذو أثر على رقي الأمة، ونهضتها، وعودتها إلى مقام السيادة والقيادة للأمم الأخرى بما لديها من قيم حضارية عظيمة جعلتها كما قال تعالى عنها: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران: 110]، ولذا كان مبعثه عليه الصلاة والسلام منة على المؤمنين، إذ خرجوا به من الظلمات إلى النور، ومن التخلف الحضاري والقيمي،

([1])مسند أحمد (431/16) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

([2]) صحيح البخاري/ ك:(الطب)/ب(الطيرة)/ ح5755.

([3])مسند أحمد (435/15) وقال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن.

([4]) جامع البيان (9/ 427).

([5]) تيسير الكريم الرحمن (217/1).

إلى الريادة الحضارية فقال تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: 143]. ووصف الله تعالى الاستجابة للرسولﷺبالحياة فقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: 24، 25] عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ: "{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} أَيْ: لِلْحَرْبِ الَّتِي أَعَزَّكُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا بَعْدَ الذُّلِّ، وَقَوَّاكُمْ بِهَا بَعْدَ الضَّعْفِ، وَمَنَعَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ بَعْدَ الْقَهْرِ مِنْهُمْ لَكُمْ."[1]. وقال ابن عاشور:" وَهُوَ إِعْطَاءُ الْإِنْسَانِ مَا بِهِ كَمَالُ الْإِنْسَانِ، فَيَعُمُّ كُلَّ مَا بِهِ ذَلِكَ الْكَمَالُ مِنْ إِنَارَةِ الْعُقُولِ بِالِاعْتِقَادِ الصَّحِيحِ وَالْخُلُقِ الْكَرِيمِ، وَالدَّلَالَةِ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَإِصْلَاحِ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ، وَمَا يَتَقَوَّمُ بِهِ ذَلِكَ مِنَ الْخِلَالِ الشَّرِيفَةِ الْعَظِيمَةِ، فَالشَّجَاعَةُ حَيَاةٌ لِلنَّفْسِ، وَالِاسْتِقْلَالُ حَيَاةٌ، وَالْحُرِّيَّةُ حَيَاةٌ، وَاسْتِقَامَةُ أَحْوَالِ الْعَيْشِ حَيَاةٌ."[2]

الخاتمة

اتباع الرسولﷺ هو المنهج الذي ينبغي أن يلتزم به التربوي المسلم، فهو فرض شرعي، ومسلك تربوي يعلو ولا يعلى عليه من التزمه هدي، ومن استقام عليه وفق للخير، ومن تمسك به نجى من الانحرافات السلوكية، والتناقضات الفكرية، والأزمات النفسية، والصراعات والمشكلات الاجتماعية. وقد توصلت من خلال هذه الورقة لعدد من النتائج والتوصيات التالية:

1. إن الاتباع في القرآن الكريم يعني طاعة رسول اللهﷺ باتباع أوامره واجتناب نواهيه. وهو المعنى الذي ذهب إليه العلماء في تعريف الاتباع.
2. إن التربية بالاتباع تعني: تنشئة الفرد بقدر استطاعته على ما كان عليه الرسولﷺ في أحواله الظاهرة والباطنة، بما يحقق له الاستقامة والصلاح في جميع حياته.
3. التربية بالقرآن الكريم علم يستمد مقاصده وأسسه ومناهجه وأهدافه ووسائله وغاياته من القرآن الكريم.

([1]) تفسير القرآن العظيم (4/ 35).

([2]) التحرير والتنوير (9/ 313).

4. إن اتباع الرسولﷺ يتضمن اقتفاء أثره في أموره كلها، وعدم مخالفته أو التقدم عليه أو على أمره وملازمة طاعته وموالاته ونصرته وتوقيره وتعظيم شأنه وخدمته في حياته وبعد موته من خلال خدمة سنته والذب عنها والتمسك بها وذلك بإتقان وإحكام بما يعقبه من استقامة وهداية في حال التابع.
5. إن الاتباع هو المنهج الذي يجب أن يسلكه التربويون في أنشطتهم وبرامجهم التربوية.
6. إن تدني مخرجات التعليم في كثير من المجتمعات الإسلامية سببه ضعف تطبيق منهج الاتباع في التربية والتعليم.
7. إن اتباع الرسولﷺ منهج يحرر العقل من أمراض التقليد والتبعية الفكرية ، ويعزز قيم التفكير والإبداع والإنتاج.
8. إن اتباع الرسولﷺ منهج يضمن سلامة المخرج التربوي، ويعطي معايير دقيقة في القياس والتقويم لتلك المخرجات.
9. إن الالتزام بمنهج التربية بالاتباع هو السبيل لنهضة الأمة، وعودة سيادتها، إذ إن الاتباع منهج ملزم لجميع أطياف المجتمع وشرائحهم.
10. إن الاتباع للرسولﷺ هو المنهج الذي يحقق الاستقامة والصلاح في أعلى صوره، ويحمي المجتمع من ظواهر التطرف الفكري والسلوكي الناشئة عن عدم الاتباع.
11. إن الاتباع منهج شرعي يجب أن يلتزم المسلم فيه بمقاصد الشريعة وغاياتها، ويحذر من التأويل والتحريف واتباع الهوى.
12. إن قوة صلة المسلم بنبيه ﷺكقوة صلته بكتاب ربه، فكما أنه ملزم بالمحافظة على تلاوة القرآن وعدم هجره، فكذلك سنتهﷺ لابد من المداومة على تعلمها وتدارسها ونشرها والعمل بها.

التوصيات:

1. أن يعتني المتخصصون في التربية الإسلامية بدراسة منهج الاتباع كمنهج إسلامي فريد له أسسه وقواعده وأهدافه وغايته ومعاييره الخاصة به.
2. أن تعزز قيمة الاتباع في نفوس الناشئة كقيمة عليا يجب الحرص عليها وتمثلها في جميع مواقف الحياة المختلفة.
3. أن تعنى مؤسسات التربية والتعليم بتأصيل منهاج التربية والتعليم وفق منهج الاتباع .
4. أن تمتد إسهامات وزارة التربية والتعليم، والكليات التربوية إلى المجتمع من خلال تثقيف المجتمع وتدريبيهم على فنيات التربية بالاتباع.
5. أن يعنى طلبة العلم المتخصصين في كتابة السيرة بإبراز منهج الاتباع من خلال كتابتهم في سيرة المصطفىﷺ.

6. أن تتولى جمعية تبيان إعداد برامج متنوعة خاصة بتفسير القرآن بالسنة ومظاهر تفسير النبيﷺ للقرآن الكريم.
7. أن يتم تطوير هذا البحث إلى كتاب يصدر من ضمن أعمال جمعية تبيان، ويدخل فيه مباحث مهمة تكمل صورته، ومن أهمها مبحث أساليب القرآن في التربية بالاتباع.

هذا والله أعلم. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

1. الأصول الثلاثة، الشيخ محمد بن عبد الوهاب،تحقيق ناصر بن عبد الله الطريم، سعود بن محمد البشر، عبد الكريم بن محمد اللاحم، مطابع الرياض، الرياض.
2. أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة، محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار الصميعي، الرياض.
3. أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق حازم القاضي، وزارة الشؤون الإسلامية، السعودية، ط الثانية، 1422هـ,
4. بصائر ذوي التميز، الفيروزأبادي، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.
5. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : 1393هـ)، الدار التونسية للنشر –تونس، 1984هـ.

6. التفسير من سنن سعيد بن منصور / أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني (المتوفى: 227هـ) /دراسة وتحقيق: د سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 .
7. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (المتوفى: 774هـ)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الرياض، الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م.
8. تفسير القرآن الكريم، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)/تحقيق مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان/ دار ومكتبة الهلال ، بيروت، الطبعة: الأولى - 1410 هـ.
9. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376هـ)، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1420هـ -2000 م.
10. جامع الرسائل ، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (المتوفى : 728هـ) تحقيق د. محمد رشاد سالم دار العطاء، الرياض، الطبعة الأولى 1422هـ - 2001م.
11. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري (المتوفى: 310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000م.
12. ذم الموسوسين، موفق الدين ابن قدامة المقدسي(639ه)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، الناشر: الفاروق للطباعة والنشر ومكتبة التوعية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1407هـ.
13. زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (المتوفى 751هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت- مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة السابعة والعشرون، 1415هـ /1994م.
14. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، 1422هـ.

15. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
16. طريق الهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، دار السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1394هـ.
17. الفتاوى الكبرى، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (المتوفى 728هـ)، تحقيق حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 1386ه.
18. لسان العرب، ابن منظور، دار إحياء، التراث العربي، بيروت، ط الأولى، 1408هـ، 1988م.
19. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (ت395هـ)، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط الأولى، 1411ه،1991م.
20. مسند الإمام أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: 241هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2001م.
21. معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: 510هـ)، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر –عثمان جمعة ضميرية –سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، 1417هـ - 1997م.